



كومبارس فيلم البطل الأوحـد

أخيرا وجدنا مسئولاً آخر استقال من موقعه، لأنه وجد نفسه أنه غير قادر على أداء مهمته بسبب المشاكل، التي يواجهها. وهو خير مفرح لا ريب، رغم أن المسئول هو رئيس الاتحاد العام لمنجى الدواجن، الدكتور نبيل درويش. أدري أن هناك من سيلوى شفته قائلاً إن الرجل ترك موقعا صغيرا، وإن عائده عليه ربما لم يكن مجزيا، وأنه حين وجد المشاكل فى طريقه، ووازن بين المكاسب والخسائر، وبين راحة البال والصداع الذى يتخلله جراء تلك المشاكل، فإنه قرر ترك منصبه غير أسف عليه، هذا كله لا استعده، ولكن أكثر ما يهمنى هو إثبات مبدأ الاستقالة حين يتعذر الإنجاز، وهو ما تمنيته يوما ما، وكتبت فيه أكثر من مرة متسائلا: متى يستقيل المسئول العربى؟. بعدما لاحظنا أن كل مسئول لا يكاد يحتل منصبا حتى يعمر على كرسيه، إلى أن يقصف عمر أحدهما، فيقوم عزرائيل بوظيفته فى قبض روح المذكور، أو ينزع الكرسي بالعافية أو بالأمر المباشر الصادر من القاعد فى الكرسي الأكبر والأرفع.

طلما تعנית أن تطبق فى عالم السياسة وفى العمل العام الأعراف المستقرة فى أندية كرة القدم، فالمدرّب يستقيل إذا فشل فى تحقيق الإنجاز المطلوب منه، واللاعب لا يستمر فى اللعب إلا إذا كان محتفظا بلياقته وأدى ما عليه بأفضل صورة ممكنة. ولكن يبدو أن ذلك سيظل حلما بعيد المنال طالما أن المسئول ظل مقتنعا بأنه خادم للسلطان وليس خادما للشعب. إذ فى هذه الحالة سيصبح كل جهده منصبا على تعزيز ثقة السلطان فيه واستجلاب رضاه. ولن يهمله الفشل أو الإنجاز، ورضاء الناس عنه أم سخطهم عليه.

إذا قلت إن ما أقدم عليه رئيس اتحاد الدواجن هو تصرف فرد لا يعول عليه ولا حكم له، فأنت على حق. وإذا قلت أيضا إن الأهم هو القيم الثقافية السائدة فى مجال العمل العام. وهى لا تسمح بتكرار النموذج فقد عداك العيب. لكك إذا اخترت ألا تتبالي بالخير وتشيح ببصرك عنه، أو تقرأ منه سطرًا وتجاهل الباقي، فأنت تخطئ فى حق نفسك، وتحرمها من لحظة تفاؤل لا أحد يعرف متى ستكرر.

لقد استقال أحد عشر وزيرًا من حكومة جورج براون فى بريطانيا، بسبب إساءة استخدام المال العام، والمخالفات المالية التى ارتكبوها. وعندنا تبجح أحد وزراءنا السابقين قبل أيام، وقال على شاشة التلفزيون إنه وهو فى منصبه وزع الأراضى والمعارات المملوكة للدولة على أفراد أسرته بسخاء لم يتردد فيه. وامتلا سجله بما لا حصر له بالمفاسد. ورغم ذلك تمّت مكافأته واستعاد نجوميته، لسبب جوهري، أنه لم يقصر يوما فى خدمة السلطان.

مع ذلك ومن باب الرياضة الذهنية فقط، حاول أن تستثمر لحظة التفاؤل التى رجوتك أن تتعلق بها، وتحيل أن ما فعله رئيس اتحاد الدواجن أخرج آخرين ممن هم على شاكلته، فقرر أحدهم أن يستقيل بدوره، مما شجع مسئولاً آخر على أن يفعلها، ثم كبرت المسألة حين أبرزت صحف المعارضة أخبار الاستقالات وشجعت عليها. الأمر الذى حول الخبر إلى ظاهرة، فاستقال محافظ القليوبية بسبب انتشار التيفود بين أهل محافظته إزاء انتشار اختلاط مياه الشرب بالمجاري، واستقال بعد ذلك وزير الصحة لأنه لم يستطع أن يحمى البلاد من إنفلونزا الطيور أو الخنازير. واستقال وزير البيئة لأنه لم ينجح فى القضاء على السخابة السوداء، ثم استقال وزير التعليم بسبب انهيار العملية التعليمية، وتحول الناس عن مدارس الحكومة إلى المدارس الخاصة، واستقال بعد ذلك وزير المالية بعدما أسهم فى إشعال نار الغلاء بالبلد، واستقال وزير الخارجية حين اكتشف أن البلد قد هيبته وسمعته، كما استقال وزير الداخلية بعدما انتشرت ظاهرة توحش الشرطة، واشترك بعض عناصرها فى تهديد الأمن بدلا من حمايته.. الخ.

إذ استرسلت فى الخيال، ستدرك فى لحظة أنه لم يبق مسئول فى موقعه، وقيل أن تسود الدنيا فى عينيك إزاء خلو مواقع السلطة من شاغليها، لئن ينذك من اليأس سوى انتباهك إلى أن شيئا لم يتغير، لأن واحدا فقط ستجده ثابتا فى مقعده لم يتزعزع عنه، واكتشافك أنه ممسك بكل الخيوط فى يده. وأن الذين رحلوا لم يكونوا سوى «كومبارس» فى فيلم البطل الأوحـد.